كرم ملحم كرم

المؤلف القصصي والمنشئ الخصيب

(١٩٠٣ - ١٩٥٩)

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

ان ادارة المطبعة الكاثوليكية تستعد لاعادة طبع «معجم المطبوعات العربية والمعربة» لمؤلفه المرحوم يوسف اليان سركيس مع زيادات هامة اضافها اليه نجله السيد لويس سركيس.

ورغبة في ان تجهز الكتاب الجديد بسائر ما يمكن معرفته من الكتب التي ظهرت مؤخراً وبالترجمة لاصحابها ارسلت منشوراً الى عدد غير قليل من حملة الاقلام طالبةً اليهم التعليقات عن انفسهم وعن مؤلفاتهم وعن الكتبة المحدثين الذين يعنون اليهم معرفةً وصداقة.

واتت الاجوبة على اسئلة الادارة ومنها جواب السيد كرم ملحم كرم[1].

واننا لم ننتظر طبع «معجم سركيس» المجدد لنضم اليه اللازم مما جرره الينا بيده هذا الكاتب النحرير. ولا نخالنا متطفلين في نشر مقاله على علاته في المشرق طالما ارسله الينا في سبيل النشر وهو المصدر الثقة في الكلام عن نفسه.

كرم ملحم كرم

حياته – مؤلفاته (بخطه)

«وُلد في آذار ١٩٠٣ في دير القمر. ابوه شاهين ابو كرم من مزرعة الشوف. وأمه سوسان بنت يوسف الاسمر من دير القمر.

---

(١) ونتمنى لكل من يطالع هذه الاسطر اعتبارها كالمنشور المذكور داعياً الى مساعدتنا في تكملة التعليقات اللازمة لكمال «معجم المطبوعات» ونوجه طلبنا خاصة الى رجال الدين المسيحي سائلينهم ما فسد به المثال في الكتاب المذكور وقد اهمل (اوكاد) في طبعته الاولى ذكر المطبوعات العربية المسيحية الدينية وتراجم اصحابها.

أتم دروسه في معهد الاخوة المريميين في دير القمر وانتقل الى معهدهم في جونيه ليتابعها .

مال منذ حداثته الى الصحافة والادب واحدث فيها اتجاهاً جديداً . واول جريدة انشأ فيها كانت جريدة « دير القمر » لاستاذه في اللغة العربية المرحوم نعوم افرام البستاني . وفي سنة ١٩٢٣ دعي الى جريدة « البرق » في بيروت . وانتقل منها الى « صدى الاحوال » ، ثم الى « الاحوال » ، ثم الى « الاحرار » ، والى « الراية » و« الجوائب » و« الراصد » و« لسان الحال » و« المعرض » و« الارز » و« الاستقلال » وسواها ، حتى لم يبقَ لجريدة مجال العتب عليه . وكان اصدقاؤه يسألونه : اين تشتغل اليوم ؟

وفي مطلع سنة ١٩٢٨ انشأ مجلته القصصية الاسبوعية « الف ليلة وليلة » . ولما بلغ بها « الف ليلة وليلتين » وقف بها عن الصدور ، وقد جاوزت اسمها واستهلكت مجهوده . وسهر لاجلها الليالي يذيب فيها وكده وشبابه .

وفي مطلع سنة ١٩٣٠ انشأ جريدته الاسبوعية الادبية المصورة « العاصفة » ولقد كانت ناراً على الحاكمين وعلى المنحرفين ، فعطلتها السلطة مراراً .

وفي سنة ١٩٣٢ انشأ مجلته القصصية الاخرى « الاسرار » ، ثم جعلها تاريخية . وما تزال تصدر حتى اليوم بهمة الاستاذ فؤاد الميداني وقد اصبحت له .

وتولى كرم كتابة هذه المجلات الثلاث وحده . واشرف بنفسه على تنظيمها .

وبعد حرب ١٩٣٩ انصرف الى التأليف القصصي الضخم ، ضارباً صفحاً عن الترجمة ، مع كونه برع فيها حتى تقدم الجميع . واول كتاب من تأليفه ظهر له في سنة ١٩٣٦ ، وهو « صرخة الالم » . وقد صدرت طبعتها الاولى في ١٤٦ صفحة ، وطبعتها الثانية في سنة ١٩٤٩ في ١٩٢ صفحة ، وهي الآن تحت الطبع للمرة الثالثة في ٢١٤ صفحة .

وفي سنة ١٩٣٧ طبع كرم كتابه « الصدور » في ٢١٢ صفحة .

واعاد طبعه للمرة الثانية في سنة ١٩٥٤ في ٢٨٨ صفحة .

وفي سنة ١٩٣٨ صدر له كتاب « اشباح القرية » في ١٩٤ صفحة ، وأعيد طبعه في سنة ١٩٥٦ في ٢٢٤ صفحة ، بهمة مكتبة صادر .

وفي سنة ١٩٣٩ ظهر كتاب « يونا انطون » في ٢٥٦ صفحة .

ونشرت له مكتبة صادر الكتب التالية : دمعة يزيد في سنة ١٩٤٦ .

وأعاد هو طبعها للمرة الثانية في منشوراته « الجبل الاخضر » في سنة ١٩٥٤ في ٢٨٩ صفحة .

وقصة « صقر قريش » ، طبعتها مكتبة صادر في سنة ١٩٤٨ في ٢٧٢ صفحة ، ونفدت ، وهي الآن تحت الطبع .

و« قهقهة الجزار » ظهرت في سنة ١٩٥١ في مكتبة صادر ، في ٣٦٥ صفحة .

وفي سنة ١٩٥٢ طبعت له مكتبة صادر قصة « وامعتصماه » في ٣٣٩ صفحة .

وكانت قد طبعت له في سنة ١٩٤٧ قصة « ام البنين » في ٣٥٢ صفحة .

وقصة « انتقام الحيزران » في سنة ١٩٥٧ في ٣٥٠ صفحة .

وقصة « عقرا » في سنة ١٩٥٣ في ٢٥٥ صفحة .

واقاصيص « اطياف من لبنان » في ١٩٥٢ في ٢٥٥ صفحة .

وطبع هو لنفسه في منشوراته « الجبل الاخضر » في سنة ١٩٥٤ قصته « ابو جعفر المنصور » في ٣٥٣ صفحة .

وفي سنة ١٩٥٥ قصته « المجنون » في ٣١٢ صفحة .

وفي سنة ١٩٥٧ قصته « جفاف الزيزفون » في ٢١٤ صفحة .

ولديه ما لا يقل عن ستة قصص جاهزة للطبع منها « الراهبة هندية » و« الساكين » و« التائهات » و« يقظة الرماد » و« لبنى ذات الطيوب » و« كليوباطرة » و« ميسالينا » ، و« الجياع المشردون » ، و« مسافر » ، و« اميرة على الامير » . و« اشباح » ومعظمها يبلغ خمسمئة صفحة واكثر .

وفي سنة ١٩٥٩ نشرت له مجلة « النادي » الحلبية ، كتابه « قطاف العناقيد » في ١٥٠ صفحة . وسيجدد قريباً طبعه في بيروت بما يقارب ٢٠٠ صفحة .

وسبق له ان نشر في كتاب خاص قصة « سركون ، ملك القرصان » ، لمؤلفها « ارثور برنيد » الكاتب الفرنسي . وقد نشرتها في سنة ١٩٢٧ جريدة « الاحوال » وطبعها الاستاذ عثمان سيف .

ولكرم قصص كثيرة مترجمة . منها « معبر الانين » ، وذو القناع الحديدي » ، و« المركيزة ده بومبادور » لميشال زيفاكو القصاص الفرنسي .

ومنها « فرخة النسر » للمؤلف « ارثور برنيد » . ومنها الجزءان الاولان من قصة « روكامبول » للقصاص الفرنسي « بونسون دي تيراي » . وسواهما ، ولو جئنا نحصي ما كتب كرم وترجم لاحتجنا الى وقت طويل وقد برّ في ما انشأ ونضل جميع المنشئين في الشرق والغرب .

وله في الاعداد كتاب « أف للناس ! » . وهو بحث في علم النفس يقول فيه كرم انه خير ما انشأ .

وسرعة قلمه مشهورة . فيؤلف الكتاب برمته في اسبوع او اسبوعين اذا شاء باسلوب رائع ، فريد ، وتوجيه سديد .

وقد اعطى المثل على ان الدماغ الشرقي سيّال كالدماغ الغربي . وليس للقلم في يمين الكاتب الشرقي ان يستسلم الى الجمود .

واصابه الداء فقعد عن العمل مكرهاً . وما يزال الحنين الى القلم ملء جوانحه . فينصرف اليه على غفلة من اهل بيته وقد منعه الاطباء من الاعتكاف على الكتابة والتأليف . وهو من وطد للقصة العربية الحديثة وروّج لها . فشدّ بهمته ، برجلين قويتين ، راسختين .

ولم نعرف قبله كاتباً يشل هذا النشاط العجيب .

تزوج في سنة ١٩٢٩ ابنة خاله اميلي بنت خليل يوسف الاسمر ، من دير القمر ، ورزق منها اربعة اولاد صبيين وابنتين ، عصام وملحم وشوشن وسها .

وقام في سنة ١٩٤٥ برحلة الى فلسطين بدعوة من محطة الشرق الادنى في يافا ، وزار القدس ، وكنيسة القيامة ، والقبة ، والمسجد الاقصى . »

*

من مؤلفات كرم لم اقرأ الا خمسة ، ذكرت في اللائحة السابقة ، وواحداً لم يذكر فيها . وعنوانه « الضفاف الحمر » .

(طبع دار المعارف بمصر ١٩٥١ ص ٣٦٣ ق ١٢)

واني لاكتفي بها لتقدير قيم المؤلف في التاريخ والانشاء . فالخصيصة معلقاً عليها ما اقتطفه من طياتها غاذج يقتبس فيها القارئ شعلة يستضيء بها في الاطلاع على سائر ما كتبه هذا الرجل المقتدر النجيب المتفاني في احياء الفن القصصي للناطقين بالضاد .

واقول من ثم رأيي فيما لا بد من قوله عنه تجاه مبادي الادب الصحيح والذوق السليم .

ام البنين

هي ابنة عبد العزيز وزوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك الاموي . اقام على العرش من ٧٠٥ الى ٧١٥ وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره عرف بميله الى العظائم والتظاهر بالتمسك بالدين .

وان زوجته « ام البنين » طلبت اليه الاذن في الحج . فزودها بكل ما يجب تزويده الملكة اذا ما سافرت لقضاء الواجب الديني . ولكن على طريقها من دمشق الى مكة والمدينة وفي اقامتها بالحرمين ملتقى الشعراء واخصهم عمر بن ابي ربيعة ووضّاح اليمن . وكانت نساء الاكابر يقرّبنها اليهن ويتطلبن اليها نشيد الاشعار مديحاً لصفاتهن . وتعشق ام البنين الشاعر وضّاح اليمن وتخبئه في صندوق ويطلع على تصرفها زوجها الخليفة فيقتل الشاعر .

وقد جاءت الرواية في كتاب الاغاني (٦ : ٣٢-٤٦) وهي تاريخية .

فاخذها كرم واعمل فيها القلم متوسعاً في وصف دمشق ومكة وطريق الحج وتصرفات الناس فيه وللنساء دورهن في المنافسة على اكتساب عواطف الشعراء ومديحهم .

وكان وضّاح اليمن عاهد روضة ابنة مصعب التاجر على ان يتزوجها وعمل دون قرانها عناد مصعب وبخله فتموت روضة في مستشفى المجذومين ويموت عشيقها في « صندوق » ام البنين .

ومن جميل ما جاء في الكتاب بوصف الشاعر (ص ١٠٠ سطر ١١ ..

« فليس بالحقير المنتهك الحرمة ، ولا بالقفير المتعاوي على الخنالة ، وفي صدره روح يقصر عن ادراك شأوه ذو الهمة المستطيلة ، وفي جنانه ثروة لا يجري في صيدها بيت مال امير المؤمنين . ان الخليفة المنشور اللواء قبنا ، يتسنى على جلالته ، لو يمد بعرشه موهبة وضّاح اليمن . فمن تتنى بشعره الخواطر والبيد ، لا يُزدرى ، ولا يُخبن . ان امتخدر ليشتهي ان يفتح مناقذه للشاعر الرابع بعرش كلما اطاق قافية . . . »

صقر قريش

« هو لقب الامير الاموي عبد الرحمن الاول « الداخل » فرّ من مذابح بني العباس الى الاندلس سنة ٧٥٠ واسس في قرطبة دولة عربية سنة ٧٥٦ وهو باني جامعها الشهير . زاحم المنصور العباسي على الخلافة . حارب شارلمان . ادخل القبائل بطاعته » .

تلك خلاصة كتاب جاء في ٢٧٢ صفحة كأنها الرواية التمثيلية تتجلى على مسرحها بين فصل وفصل وستار يرتفع وستار ينسدل مظاهر اشخاص يمثلون ادوارهم بانيق الحركة واجمل الوقائع واروعها .

ولعل هذا الكتاب وقد تتجدد طبعته هو الذي تروق مطالعته عرب المغرب وفيه يقرأون اخبار صلتهم بالعالم العربي الشرقي وفيه للنساء كما في سائر قصص كرم ملحم كرم دورهن في انعاش العواطف النبيلة فيعزين وقت الحزن ويكرمن الضيف ويشجعن على القيام بالاعمال العظام . اليك ما اختصرته من وصف المعركة بين عبد الرحمن والاسود (ص ١٧٥—١٧٩) .

وعلا زئير خشن ملأ الصحراء . ثلاثة من الاسود المفتوحة الاشداق تطلق الجسم اشبه بجراكين سيارة .

فصاحت زينب : عبد الرحمن ، هذا سيف عمك فانقذ به نفسك.

وعبد الرحمن وراءها على بعيره فرمته بالسيف فوقع في قبضته. فانتضاه . . . واقتحم الشر اليهم « يا بني فهو ان واقعة . . . فقتل اسدين . . ولكن الاسد (الثالث) جهش بانيابه كتف عبد الرحمن . فرعرعت النهشة الفتى الاموي فشحب لونه ونزف دمه وحسبت يده تخور كاد يشلها . . وتثنى الجسيم ميتاً واذا ضربة سيف تمزق هامة الاسد فيتدحرج ملك القفار على مقربة من الامير الاموي . والتفت الركب الى الضارب فاذا هو الفارس المنقض من اعماق الصحراء كالسيل الوارف « وانسوس » الزعيم البربري حليف عبد الرحمن .

قرنفلة الجزار

« قصة صفحاتها ٣١٥ تجري وقائعها بين دير القمر وصيدا وبيروت ودمشق في اواخر القرن الثامن عشر وبطلها « الجزار » البوسني الاصل الذي فتك بالمماليك في مصر فاستحق اسمه لبطشه وشراسته ومن غريب امره انه كان في اشد المواقف حراجة يتهته كأنه يمزأ بالقضاء.

وقد وفق الى الضغط على زمام الحكم في لبنان ولا ينال من صلابته الا المال او الجبال اذا ما لاح له وميضه في أيدي الامراء او بين حرم القصور » .

وقال كرم في وصف المماليك عن لسان الجزار (ص ٢٦—٢٧) :

« واقه نحن المماليك قوم لا حفاظ بيننا . . . وماذا يرتجى من جماعة لا توثق بعضها ببعض وشيجة قربى ولا مصلحة وطن؟ . . فلسنا غير خليط من الناس اشترام سادتهم بالذهب . وما تحررنا من ربقة اولياتنا حتى سمينا للتطاحن والاستئثار بالسلطان . والاقوى فينا من ذهب بالقوي والضعيف منّا . انّ عددنا في مصر ليزيد على عشرة آلاف . وكلنا يتقاضى المال من مراتب يشغلها ويختلف بعضها عن بعضها شأوًا . الا ان صغيرنا لا يحجم عن اقتراس كبيرنا اذا سنحت له غرة الغنم . وكبيرنا لا يطيق من هم دونه لئلا يكيدوا له . . فعلينا ان نحترس من كل شيء كأن الركون بعضنا الى بعض محال . . . »

الرضّاع الحمر

« مرة » ابنة تياس ملك اشور مولعة بابيها وتبوح بولعها لفيروز الوصيفة الفارسية وهذه تشبك الرابطة الذميمة بين الابنة وابيها وتغره على اقتراسها محجوبة بظلام الليل دون ان يعرف انها ابنته . وتحبل منه وتفر من القصر وتجتاز نهر دجلة وتنيه في الصحراء وتقطع الفرات وتبلغ حدود الشام وتلد ابنها .

وما الطف وابهى ما كتبه كرم ملحم كرم في الام وطفلها والحنان المتبادل بينها وبين الظبية (ص ١٤٢—١٤٣) .

[وطارد الصيادون الظبية واتلفوها] .

« ولاح لمرة انها اضحت على شوم الحرمان وليس من شفيع لها الى النجاة . . . وخلع كبدها ان يتلاشى طفلها على مرأى منها فحملته وزحفت به الى دنيا الانتعاش ووهبت لها الامومة المجاهدة قوة على درء النازلة . . لكنها موت في الارض كالناقة القريف واحست بالموت يرين عليها . وخافة ان يبقى طفلها صغيرها تناولت من شعرها دبوسًا وخزت به ثديها فليشرب ابنها دمها واباحت للصغير ما يسيل منها من نجيع فامتص الطفل دم امه وارتوى واذا به يزقزق كالعصفور الغريد على حين انطبقت اهداب امه الى الابد » . (ص ١٤٧—١٤٨)

وان بنات بيباوس في رحلة الى بر الشام يقعن على الام الميتة وعلى طفلها الحي . فيدفن الام ويحتضن الولد ويسميه ادونيس . وينشأ الغلام في رعاية الابنتين عشتاروت (الزهرة) وبروزربين (وكلاهما من معبودات الوثنية الفينيقية

اليونانية) ويشقانه حين يبلغ سن المراهقة ويموت ضحية منافستها عليه فيقتله خنزير برّي ويصطبغ بدمه نهر بيبلوس .

ومعروف ان نهر ابراهيم (نهر بيبلوس) يشحن (وكذلك نهر الكلب) رمالاً حمراء من اعالي الجبل الى البحر ويمد بها جريانه في لجة البحر مياهاً مصطبغة باحمرار الرمال حتى في يومنا . والى ذلك اشار المؤلف متصرفاً بالاسطورة التاريخية المشهورة عن ميتة ادونيس ، قال :

« دم البكارة في الهيكل ودم الحقول في النهر عنوان لافجع كارثة هيام كتبها الحب الباغس بالنجيع . واذا امسك عبدة هيكل « عشتروت » عن ارتياد اعالي افقا للنواح على الفتى الاغر ، المرضوض المهجة ، الذابل في شرخ الانبثاق ، فالضفاف اللهاف لا تنقطع حتى أبد الابد في كل سنة من موعد النازلة ، عن الاصطباغ باحمرار الدم توجعاً على « ادونيس » الحبيب ، فان نهر « بيبلوس » المذكور ليصب حتى المنتهى دمه الفاني النياعاً على من اختترمه الموت شهيدًا رخيصاً ، مذ اعابه شلة الفتوة ، وجام اوصاله نداوة البهاء » (ص ٣٦٣) .

والمعتصم

في ٨٣٣ م ٢١٨ هـ مات المأمون فخلفه المعتصم واختلفت المبايعة عليه . فيطالب العباس ابن اخيه المأمون بالخلافة ويتقدم الجيش وقواده على العم وابن اخيه . ومن مناصري العباس القائد عجيف بن عنبسة ومن المتراوحين بين المعتصم والعباس القائد افشين . وتنشب الحروب شرقاً في بلاد فارس وموقد نارها بابك الخرمي وشمالاً تاوفيل امبراطور بيزنطية وتتنقل الفتنة في مضاف الزط في بغداد فيغتصب المعتصم سكانها ويتحول منها الى سرّ من رأى . ويتدخل بما لا يعنيه من شؤون الدين فيضطهد الامام الوقور ابن حنبل القائل بان القرآن غير مخلوق . هذه وغيرها من الحوادث التاريخية الزاهية يبحثها المؤلف ويتناولها بيد صنعة ماهرة ويعرضها باسلوب روائي فتان زادت بهجته النجوم الزاهرات من فتيات العرب : « نوران » ابنة عجيف الفريدة بصفاتها الخلابة الآخذة باعجاب القراء في وفائها نحو خطيبها العباس ابن المأمون فتساعده في المشقات التي احتملها للدفاع عن العرش العربي وعن رجاوتها في الجلوس عليه زوجةً وملكة . وريحانة ابنة ابراهيم عم المعتصم وقد وقعت اسيرة في ايدي الروم فاهانوها وسجنوها

مستغيثة بعمها الخليفة بصيحتها التاريخية «وامعتصماه» فيبلغ صداها الى آذان الخليفة ويجهز الحملة العرمرمية ويجتاح بلاد الاناضول فيفتح زبطرة وملطية وانقرة ويطوق بجيوشه عمورية ويهتدي بالحيلة الى ثلمة في اسوارها فيدخلها ظافرًا . وهمّ بالرجوع الى سرّ من رأى .

وهمّ بالرجوع الى سرّ من رأى . ولكنه تذكر ابنة عمه ريحانة . استنجدت به من الروم وبابها على الانقاذ . والشرف والاباء يقدران عليه درء البلية عنها . فلن تذهب هدرًا صيحته : «لبيكِ ، لبيكِ !» ، فها تستصرخه ريحانة : وامعتصماه !

وقضت عليه نخوته بالنجدة . لن يبرح عمورية الا وابنة عمه ابراهيم بجانبه ، في هودجها المثيف . فهي دليله على قهر اعدائه . وصرخ بالقادة الروم الواقفين بين يديه في ضراعة المستغيث : ولكن لم تدفعوا اليّ ابنة عمي ، وقد لطمها في زبطرة أحد اعلاجكم وأسرقوها . فأين هي ريحانة ؟ . . . إني لاريدها سليمة من الخدش . إحملوها اليّ الساعة ، اذا كنتم تحرصون على هاماتكم !

وما ندّ عن قادة الروم أمر ريحانة ، الفتاة الهاشمية الثاوية بالامر ، وهي اول من سقط في أيديهم من العرب ، في طفرة التحدي . وما تجرأوا في حضرة المعتصم على الالتفات بعضهم الى بعض ، لفرط الهيبة . وجمجم أحدهم ، بلهجة مقاولة الغرب ، ينفذ بها نفسه واخوانه من نقمة ابي إسحق : هي في أعماق حصن الملك ، يا أمير المؤمنين !

فأرهف المعتصم بالله أذنيه . واستدارت عيناه . وجلجل : أهي في حصن الملك ، لا أبا لك ؟ . . . ولكني دمرته بيدي ، وما أبقيت فيه مدماكًا . أأكون دفنتها في غياهبه ؟

وهاله ما يسمع . وأوجعه ما أقدم عليه . وصاح برهط من رجاله : دونكم هذا الاسير . إنطلقوا به الى حصن الملك . وتنبهوا في الانتاض عن ريحانة ، ابنة عمي ابراهيم . غوروا في المطاوي في الفحص عن المستجيرة بنا . ثأ خفتا ، لولاها ، هذه الحرب الطحون !

وأغار رجال المعتصم على أنقاض حصن المعتصم برفوضا . واتسع لهم فيها الى سلالم من حجر ، تشق كبد الارض ، وتنتهي الى دهاليز وسراديب انتصبت دونها أبواب ضخام ، من سفيق الحديد . فحطموا اقفالها بالمطارق . وفتحوها وتنقلوا في أنفاقها ، يبحثون فيها عن اعشاش الاسر . وانتهى الى سامعهم انين الاحتضار ، كأنهم في أرماس لا تزال الحياة تصاول فيها شراسة الموت . وهفو الى هؤلاء المحشرجين يرفوضهم بين ايديهم ، ويتبينون على ضوء المشاعل أساريرهم ، مستوضحين كل من يقعون عليه : أأنتِ ريحانة بنت ابراهيم ؟

وانقذوا العشرات من هؤلاء المحكوم عليهم بالاختناق في بطون الدياميس . ولكنهم ما اهتدوا الى ريحانة . ورهبوا نقمة الخليفة . فأمسكوا بخناق القائد الاسير ، صائحين به : أين ابنة عم امير المؤمنين ؟ . . . أين هي ، والا بات هذا النور لك جدثًا ؟

فأبان بارتعاش المصدوع اللب : أعرف أنا هنا . انا قائد هذا الحصن . وقد توليت بنفسي رعاية الفتاة الهاشمية . وكنت امنع عنها صولة التعدي ، وأؤوي فيها ذاوي الرجاء !

وجدّ في البحث عن مفرها . واذا به يصيح وقد وقف تجاه باب من الحديد أكله الصدأ : إفتحوا هذا الباب !

فحطموا القفل مستبشين بزنجرة الحتف : أهي في هذا الدياس ؟

فأعلن بثقة وطيدة بما يدي : هي فيه !

فدخلوا ، وعلى شفاههم يطفو زبد الجهد والوعيد ، صاهلين : اذا لم تسقط عليها فستكبلك بالقيود ، ونبقيك في هذا السجن حتى تجفّ فيك مواهة الروح !

وأثارت مشاعلهم الكهف . وأداروا ابصارهم في كل ناحية ، فما لاح لهم مخلوق . بلى ، تبينوا ، في احدى الزوايا ، يدًا هزيلة ، تجتهد في ان تستر نفسها بحصير شدد الكروب ، منسول الخيوط . فمشوا اليها ورفعوا عنها الحصير . فما لا صوت امرأة يترنح ، ويترحم بلسان عربي لا رطانة فيه : عفوكم ، أصبحت لا أطيق !

فأيقنوا انها ريحانة . وهتفوا بها : أريحانة انتِ ؟ . . . أإبنة عم امير المؤمنين .

ولاحت لابي اسحق ، فجمدت عليها عيناه بذهول . أهي هي ريحانة ، ذات النضارة الزيا ، والصباحة المفضلة ؟ . . . وأنكر أنها هي . وصاح بالتياع : ألا منْ أنت ؟ . . . أأنتِ ريحانة . . . ابنة عمي ؟

فغمغمت وقد أمست بين يديه . وزفرت . وقالت بصوت عليل ، تشبع في الحسرة : أنا هي ريحانة ، يا امير المؤمنين . ريحانة ابنة عمك ، وقد أذاقها العلوج ، من ضروب الغير ، ما كادت تشرف به على المنية . إنها جثة يلوكها القبر ، ويوشك ان يبتلعها . ولكن رحمة الله لا تزال ندية ، واسعة يا أبا إسحق !

وانتحبت وولولت : واستعباه !

فصاح : لبيك ، لبيك !

ومال عليها يعانقها . وضمها الى صدره على مرأى من جميع من تظاهم المكان . هذه ابنة عمه ، وانه ليحنو عليها كما يحنو على أخته وابنته (ص ٢٨٣-٢٨٨) .

*

تلك خلاصة الحوادث التاريخية اما مجالها في عالم الخيال فواسع خلاب يذكر باحسن ما جادت به قرائح الكتاب القصصيين في تحليل نشأة الحب الشريف ومقدرته في قلوب ابطاله على اقتحام المخاطر وتذليل الصعاب فاذا اضطرمت نار الحروب فكانت نيران شعلتها الوقادة على امل ان يهلك فيها المعتصم وابوها يساعدها في دس الدسائس انتصارًا للعباس بن المأمون لكنه

يموت وتموت نوران امينة على وعودها نحوه فهي « الوردة على القبر » وبهذه العبارة عنون كرم الجزء الثاني من هذه الرواية .

اطياف من لبنان

هذا الكتاب يحوي ست قصص .

١ً النهد الكذوب :

ليس الا الكتلة من القطن حشا بها صدره « نديم » الفتى وبها تنكر بزي اخته « راجحة » فاستهوى ساعة « شكيب افندي » العميل للاتراك في بسكنتا الذي تهدد « راجحة » ان لم تسلمه ذاتها بان يتهم اهلها بالخيانة ويعرضهم لنقمة جمال باشا . وبينما كان شكيب يغانج ذات « النهد الكذوب » دخل الحلفاء لبنان في نهاية الحرب الكبرى الاولى وافرجوا عن سكانه ولاذ شكيب بالفرار . وتزوجت راجحة « بناضر عون » الطبيب الشاب الذي كان اوى الى بسكنتا متنكرًا بزي الراعي .

ومن اقوال كرم ملحم كرم عن لسان ناضر عون (ص ١٩) :

« ان لبنان ما انتزح ، ولن يتزح ، بالسلطنة العثمانية ، وما زال منذ قيامها مستقلًا عنها . والدولة العثمانية نفسها تعلم ان هذا الانتزاح ، وقد حاربت في اللتانيين من اجل العرب جميعًا . ولبنان ، وهو منعطفة من الاقطار العربية ، لن يتجزأ عن اخوان . فلا بد ان يستعيد سيادته ويتولى ، كما كانت الحال في عهوده المنصرمة . . . ولا بأس على ان الشعب في سبيل هذه الغاية ، على ما هو ذا يتحقق ، من ضيق وقد شعفا وجسامة التركة » . .

٢ً شريعة الثأر :

ما اشبه هذه القصة بقصة شيان وروديك في مأساة « السيد » للشاعر الافرنسي كورنايل لولا نهايتها التعيسة : « يوسف مسعود » الشاب المتعجرف يقتل الشيخ سرحان ابا خطيبته « صفية » بعد ان اهانه الشيخ بصفعة على وجهه . ويلوذ القاتل بالفرار الى كهوف الباروك ويندم على ما فعل ويلتقي بيونس الاعرج راعي الغنم ويسأله ان يستحضر اليه صفية فتحضر على امل الصلح والوفاق

والزفاف ولكن قلبها يتقطع بين حبها لخطيبها وما تراه واجباً عليها في الانتقام لابيها فتحتال وتراوغ وتقتل يوسف مسعود وهو نائم .

قال كرم (ص ١٢٨) :

« وخدت صفية الى النوم فهي في عياء ناعك . ويوسف مسعود لهى اغاءة الاطمئنان . لفي الكثر المفقود . على ان صفية تحفزت للاستواء وهي تسمع رفيقها في شخير . التفتت اليه وتذكرت يمينها [بالثأر] . ليس بجانبها حبيبها بل قاتل أبيها وجاشت في ضميرها شريعة الغاب ، المسيطرة في هاتيك القسم على الارواح . رأس برأس وعنق بعنق . ولاحت لها بندقية يوسف مسعود بقربه . واستجلت موقفها . ما جاءت لتغفر بل لتنتقم . احتالت على يوسف بالعفو والرضى به زوجاً كي تأخذه بجريرته . . . مالت على يوسف مسعود الغافي على طمأنينة فتناولت البندقية المضطجعة اليقظى بقربه وسددتها فوراً الى صدر القاتل لا تلفت الى معارضة قلبها وضغطت الغادح . . . قضى يوسف مسعود فلتنتش عظام نجم سرحان في ثراها . . . »

اقول وما ابعد هذه النهاية عن نهاية رواية كورنايل وفيها شيمان لا تخادع وتبتعد عن عشيقها الى ان يصلح بينها « الزمان والملك » فهي شريعة الشهامة والفروسية لا شريعة الغاب .

٣ عيد الميلاد

احمد المسكوبي يتزوج شادية المخزومي . طالت الايام ولم يرزق منها ولداً . ولم يطلقها ولم يتزوج عليها غيرها ويفترق من امه واخته ويسكن في حيّ الناصرة بيتاً بجواره عائلة مسيحية لها ابنة اسمها سعاد . وتشكو شادية عقمها لسعاد فتزور مع سعاد يسوع الطفل في عيد الميلاد في احدى الكنائس وبعد تلك الزيارة ترزق لبنة وتسميها رجاء . وتزوجت سعاد وسافرت الى البرازيل وعادت بعد ١٢ سنة وهي ارملة فقيرة مع ابنتها ندى . وتلتقي ندى في المدرسة مع رجاء وبواسطة ندى ورجاء تتعرف شادية الى سعاد صديقتها القديمة وتميلها في محنتها . وقد تذكر هذه الحكاية بما رواه ڤيكتور هوغو في قصة اكواخ الفقراء (Les pauvres gens) .

ووصف كرم ملحم كرم كيف اهتدت شادية الى زيارة الميلاد قال :

سألت سعاد شادية :

ما رأيك في النصرانية وانت تدينين بالاسلام؟

فتلت بالاية الرؤوم: « ولتجدن اقربهم الى الذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى» . . .

فاغتبطت سعاد بما تسمع واستبجلت : وهل تلبيني الى الكنائس اذا دعوتك الى المثول فيها ؟

– الكنائس كالمساجد بيوت الله ونحن المسلمين نرتاد كل مكان يعبد فيه الرحمن .

فابدت سعاد بمستفيض البشاشة : غداً عيد الميلاد عندنا ، نحن المسيحيين ، وفيه ينبثق يسوع ابن مريم فهل لك ان ترتاد الكنائس معاً وان نجثو امام المذود وان ترتفع شفاعتنا بالصلاة للطفل يسوع كي يجود عليك بولد يبعث في مترلك النبطة .

فانطلقت الى الكنائس تجثو امام مذود البقر وقد غرق فيه الطفل يسوع يتوسد التبن والقش وتبثه المجاورات الدفء فتقيه الزمهرير . وانحنت شادية امام ابن مريم تلتمس منه الحدب عليها وانصافها من زمتها . وشاقها ان تجد حولها افواج المصلين يقرعون صدورهم طالبين الرحمة فاقتدت بهم في قرع الصدور وفي الترجي . حتى اذا كانت تخلع حذاءها عند عتبة الكنيسة وتدخل حافية مستطفة خيراً وتجلى فيها الخشوع والنهيت بحرارة الايمان كأن ثمة ما ينبئها بان دعوتها مستجابة . . .

ولم يكن الشهر يتم ايامه حتى احست شادية بان فيها شيئاً يتبدل . . .

٥ عرس في قرية

« جميل » راعي غنم يعشق « ناهدة » الفتاة و« ناهدة» تعشقه . وابى ابوها الا ان يزفها الى «سعيد» الكهل المقتني في المكسيك . فيأتي سعيد بناهدة الى بيته ويريد اغتصابها فتشرب السم وتموت بينما يطعن جميل سعيداً بالخنجر ويقتله ثم يهرب من القرية ولا يعود اليها الا بعد ١٥ عاماً فيزور قبر ناهده ويبكي . ومن رائع ما كتبه كرم في هذه القصة وصف « العرس في القرية » (ص٢٠٠) .

« الخبز في التنور نقة على نقة ، ودق الكبة كالاهازيج ، كلاهما يتوالى . ورقص « الدبكة » حلقات تلو حلقات . ومزامير القصب تطلق بشجي انغامها ، فيثور لحناها القلب المثلج . والعرق يملأ الكؤوس . وشرب الانخاب كسيل جحاف : حباً !

– صحتين وناهدة على دكة عرسها مثلها على مرتبة نعشها . . . »

٥ زلفاء اخت الصخور

احتدم الخصام في مزرعة الشوف حول الاعيب في ساحة القرية « اذ تصاول

الشمال المغاوير في رفع جرن ضخم » وفي هذه المعمعة زلفا، امرأة قاسم الدرزية تنظر الى شاهين الشاب المسيحي وينظر اليها وتقع بينهما علاقات وداد لم تتجاوز حدود الاحتشام في ذلك الحب الافلاطوني .

ويميل شاهين زلفا، وآلها في ايام الضيق وزلفا، تحامي عن شاهين واسرته في حوادث الستين المشؤومة .

قال كرم (ص ٢٢١) :

« واذا لبنان يتنكر جوه . فتبددت فيه الايام السمان واطلت الربد العجاف . هذه هي السنة الالف والثمانمئة والستون . فما تذوّق اللبنانيون من رغد ، وألفة ، اذابوه في هذه السنة الحمراء . فالشقاق ثار فيهم . وعرفوا اسم دروز ونصارى ، وكانوا يهملون انطباعهم على فواصل الدين . ولم يكن من مصلحة الدول ان يسعد لبنان بوحدة بنيه ، فامتدت الايدي الى الصدور تمزقها . وغاصت الخناجر بالخناجر . فالشمس اعتلت يوم ذاك وقد اثخن لبنان جراحاً . ولطمت عذارى الجبل وجوههن خيبة والتياعاً . وتجهم الافق الموشى بالورود . فتنكر الاخ لاخيه . وقد فتنها الواشي بالمقال الكذوب . وخضبها الدم البريء فصارت الاخوة الى الوأد ، والمودة طواها الدجور » .

٦ جهاز العروس

العروس فقيرة فمن يجهزها للزواج ؟ وابوها وامها واخوتها يموتون مسلولين ، ان الكاهن يبيع هدية دير القمر اليه : سلسلته الذهبية وصليبه وخاتمه وبثمنها يجهز العروس الفقيرة .

والكاهن هو الاب بشارة مراد المخلصي الذي مات برائحة القداسة وهو مدفون اليوم في دير المخلص شرقي صيدا . وقد عرفه كاتب هذا المقال يقضي الساعات الطوال في سماع الاعترافات ايام الرياضات في الكنائس .

وعلى ذكر « بونا بشارة » يختم المؤلف كتاب « اطياف لبنان » وكأني بكرم ملحم كرم اراد ان يخلد اسمه هو الصحافي المقتدر والقصصي المبتدع لا بما سود به الوف الصفحات المبتذلة المطروحة على ارصفة المدن فيما يعرضه الباعة في الاسواق من حكايات بوليسية غرامية ولكن بهذه القصة وهي آية من آيات الفن مسطرة بقلم مسيحي .

وقد قدر كرم ملحم كرم قيمتها فصدرها بهذه الصفحة السجدية نزويها بحرفها :

الى ابنتي سوسن وهما :

سأبنتي يا سوسن ، عن كتاب أهدي اليك . فما وقعتُ على خبر من هذه « الاطياف » الطيبة بالطهر ، والفداء ، ازجيها الى روحك النضير . فهي من عندنا ، من لبنان . ولقد خلعت عليها ، من صفاء الطابع ، ما لا يعدو الحق ، وما لا يتنكر لخلقك الوديع الابيّ .

ونشتُ ، ان تكون اختك معها ، شريكتك في الهدية . فتكافأ الفضل ، وتتساوى المنحة . وما كانت مها الا عديلة لك في نبل المهزة ، وتضاعة الاحدوثة . وحسبي ان تردان ، جذه الرمانة الندية ، هاتان نفيّتان ، تتناغمان في الخفة ، وتنحنيان في المتنة . ويطيب للبنفسجة ، وهي اخت الزنبقة ، ان تجمعها طاقة واحدة ، وان توحّد بينها رفاقة الطريق .

ان في « اطياف لبنان » نوح شذا ، ورونق حفاظ . وما اصبو الى ما يرجع هاتين المقلتين ، الركيتين في ترصيع اباهكما البيض .

المؤرخ القضيمي

من لائحة الكتب التي ذكرها كرم المنشورة عنه سابقاً ومن وصف الكتب الستة التي توأناها تتجلى معارف المؤلف الواسعة وتضلعه من تاريخ الشرق عامة ومن تاريخ لبنان خاصة. فدرس الاعلام واخبارهم والايام وتطوراتها في عهد الثورة واتصالها بصحراء الشام وجبال لبنان وسواحله . (الضفاف الحمر) وتبحر في تحليل الشخصيات التاريخية في الدول العربية المختلفة الامية (ام البنين) والعباسية (والمعتضد) والاندلسية (صقر قريش) والتركية في عهد المماليك (قبقبة الجزار) . وفي حياة لبنان المستقلة الطائفية (اطياف لبنان).

ويحرص كل الحرص على براز ابطال رواياته بحلتهم التاريخية زماناً ومكاناً فاساليبهم تتصدر الحوادث والاخبار كما جاءت اجمالاً في التاريخ واذ يتفنن في اضافة احاديث النساء الى احاديث الرجال فذلك دور من ادوار القصص التي تنتهي ولا بد منها الا ان تنتهي بالزواج فتظهر التوافي على مختلف الطبقات الاجتماعية بين العروس وآلها والوصيفة واعمالها ، متعةً للخيال ومتسعاً لتوالي الظروف المهيئة لانجلاء الآراء واحتكاك النزعات وتبادل العواطف . وقد ابدع في ذلك كرم ابي ابداع . فيشغلك في الصفحات الطوال بما يتحدث به المتكلم لا مع غيره فقط ولكن مع نفسه ايضاً اذ يناجيها ويزن في عقله بين المرجح والممكن

والمفيد والمضر فيكاد يذهب بك الى عالم تظنه الواقعي واذ هو في الخيال لا غير .

مثال ذلك ما جاء في «الضفاف» عن هواجس ثياس ١١٥—١١٩

وعن مرة اذ تحدث نفسها بالانتحار ١٣٢

وفي « اطياف » ٨١—٨٢ و٩٨ وقد يكثر المؤلفون الغربيون من هذا النوع من التأليف .

*

لقد تشبع كرم ملحم كرم من الثقافة الافرنسية بدرسه في معاهد الاخوة المرسلين ثم في اشتغاله بالتعريب . وقد ذكرتنا صفحاته التي قرأناها باحسن ما كتبه رينه بازان (René Bazin) وصفاً للمناظر الطبيعية وارق ما سطره پول بورجه (Paul Bourget) تحليلاً للحوادث النفسية وللشهوات الامارة بالسوء مع انتفاض الانفس الابية دون العاطفة الدنية لترتفع الى صعيد كرامة ربما ادت الى البطولة والاستشهاد في سبيل الشرف والمروءات والمثال في ذلك صيحة « وامعتصماه » وتلبية المعتصم اليها . والوفاء المتبادل بين العباس وفوران . والاقدام على اقتحام الصعاب وقهر الشدائد في سيرة « صقر قريش » وصراعه مع الاسود وغير ذلك مما يدعو الى اقتفاء آثار الفضيلة فضلاً عن ذم اضدادها اذ ما ظهر « مصعب ابو روضة » بخيلاً شحيحاً لا يرضى بزواج ابنته الى وضاح لانه يستقل قيمته المادية .

وربما في محله شيئاً من وصف المؤلف لغاية الطرب . يطغى ابن مرة . ونحو القراء الى التمتع بقراءة ما يجود به قلم كرم ملحم كرم اذا تكلم عن مدنية العصور القديمة في اشور وعن بهاء الطبيعة وعظمتها في الصحراء او على شواطئ المتوسط او تفنن في تنسيق الظروف المؤاتية الى المجلاء كوامن العواطف والنزعات بين السيد والعبد وبين العاشق والمعشوق وبين القائد والجندي فتسير واياه متبعين الحملات الحربية في الاناضول وفي المغرب ونتعرف الى قبائل الزط في ما بين النهرين والبربر في افريقيا (وامعتصماه . صقر قريش).

على ان مديحنا ينتابه نقد لا بد منه اشارة لما نتمنى اصلاحه في مؤلفات كرم فتأتي بالمطلوب ويتصفحها الخاصة والعامة وطلاب المدارس ولا يشوبها نقص .

*

فالنقص الاخلاقي فيما يظهر على لسان من يتكلمون في سبيل غايات ممقوتة: « كفيروز » اذا دعت « مرة » الى الخطايا واذا حبلت « مرة » من ابيها فتأتي « فيروز » على وصف حالتها وصفاً وحشاً رديئاً مسهباً وقد يزيدنا اشمئزازاً فيه وفي ما يشبهه ابتذال كلمة العذراء والام العذراء! .. وما ابعد هذا المعنى بقرائنه مع ما نألفه بلغتنا المسيحية .

نعم ان « فيروز » ستموت غير مأسوف عليها وفي ميتتها الشنعاء قصاص سلوكها الممقوت وهذا المصير يشفع بعض الشفاعة بما كتبه عنها المؤلف وقد يبين باجلى تبيان ان الشر عاقبته وخيمة ويدعو من ثم الى تجنب الشر ولكن هذه الدعاية التي يستنتجها القارئ « اللبيب » ليست في متناول سائر القراء وان ما يتأثرون به من مطالعة صفحات طويلة عريضة مسطرة باوصاف الشهوات الردية ومظاهرها وحركاتها قد يثير امثالها في النفوس ، فتضر ، ولا بد من حيال اولياء الامر دون ان يتركوا هذه الرواية وامثالها جزافاً بين ايدي الطلاب وقد يأتي المؤلف في اقوال ابطال الرواية بما يلامون عليه فلا بد من التنبيه عليه ونقده كقول القائد عجيف للعباس ابن المأمون : (وامتحناه ص ١٣) :

لو نظلت مثلي في حواني الزمن ، يا عباس ، لعلمت من امر الاحتيال على ادراك البغية ما يذلل كل خصومة الاعداء . . . فالداهية من اجاز لنفسه ركوب كل حرام وصافى في الوصول الى هدفه اكره اعدائه ، حتى اذا ما ساد ابعد عنه عصبة الاشرار بسمة الحيلة . والصدق ويل على صاحبه واذا كنت انقادى من الكذب في دنيي فاني لاقره في معاملة الناس . »

فان هذا الكلام وامثاله يأتي مرادفاً للمثل السائر « الحرب خدعة » . . . ولكن ليس كل غاية مبررة للواسطة .

الاديب والمنشئ الفياض

قال كرم عن نفسه ان « سرعة قلمه مشهورة . فيؤلف الكتاب برمته في اسبوع او اسبوعين » .

واني اتصور دماغه « كالقازان » المزمجر في غليانه على النيران في قاطرة

سكة الحديد . فما ان تفتح حنفية البخار على المراجل الا والقطار يسير بعجيج وضجيج ويخطف الركاب على المسافات .

هو عليان اللغة العربية بمفرداتها ومزيداتها وتراكيبها المحشوة في دماغ المؤلف فما ان يقبل على الكتابة الا وتنهال مكتسحة سلك الخبرة وانتظام الوقائع في تعبير ابطال الرواية عن افكارهم وخواطرهم وعواطفهم وشهواتهم وتمنياتهم وانفعالاتهم واصطدامها بما يلاقون في مخاطبيهم او في ضمائرهم من اخذ ورد وسؤال وجواب واعتراض ومناعة ورضى وخزلان وتواطؤ واحجام واقدام مما يدوّخ القارئ ويكاد يذهب ببصره على القراءة .

لقد شبهت دماغ المؤلف بالقازان وبماذا اشبهه انشاءه ؟ ان الانشاء في عرف الادب انما هو التعبير عن الفكر . ويتلوّن هذا التعبير بالوان الظروف وان الانشاء القصصي غير الانشاء الفلسفي . . . ولكن شريعة الكتابة والانشاء طرّاً تقضي على الاطلاق بالا يطغى اللسان على حركة الجنان او الا يضيع الفكر في مذهب الكلام . ولعل هذا الاسهاب يكون مما تشفى اقتضابه شفقة على الفكر من جموح الخيال. فلا يضيع سلك القصة في الصفحات الطوال . قد ينبه الفكر في تصفح الروايات التي نحن في صددها ويضيع في اتباع المؤلف في ملتويات طريقه في التعبير بلغة يغلب عليها المجاز المتلاطم . نعم ! لا بأس من فوران الخيال في الاسلوب القصصي على شرط الا يضللنا عن المطلوب . والمطلوب اولاً هو معرفة من نحن واين نحن ومتى نحن من سعوتنا في القطار ولا بل ونتفق قبل ان نعرف كيف يتسنى للامير في الورقة على القبر » . (واعتصاد)

ولكن هذا الاسهاب في الكلام والاستطالة في وصف يشفع بهما عن الذم الفوائد الجمة التي يتناولها القارئ من مطالعة صفحات تطفح باللغة العربية الفصحى واساليب استنباط كنوزها في التصرف بالمفردات ومزيداتها أكانت موافقة للمقام او لم تكن كالاستسار والاستذاب والاستئساد والتنمر .

وهناك توارد الالفاظ كانها اسطر من كتاب « الالفاظ الكتابية » :

« قليس لمثل هذه الدابة بالحياء والخشمة ان تموت تلك الميتة المهينة المستورة وقليل فيها سلخ الاظفار وقطع الانامل وصلم الاذنين وجدع الانف وفقء العينين ونتف الشعر وحز

العنق بسكين صدئ واقتلاع الثديين وبتر اليدين والرجلين ، حتى اذا ما أصغى دمها وهيا للوحوش كما وهبا للموت بسخاء .

على انه حسبها «مرآة» فاختار لها هذا الموت الذريع تسوقه اليه بوادر الانتقام المرتجل . وتبرم بنفسه وقد شرب دم الجارية الكريمة . وفاجأه الفيء امتعاضاً واشمئزازاً . وانطلق يبحث عن ابنته شوقاً الى نفع لغة انتقامه والاثار منها للحق المشوّه الطاهر . فما لاحت له في المنصورة مع جولانه فيها والتدقيق في غيابها وليست تخفى عليه زواياها ومنافذها . وأدهشه ان تظفر به الجارية الفارسية الخائنة في دفع ابنته اليه كي يفترس عذرها ، وفي حجبها عنه فيما يجاهد في محو عارها بدمها » .

ولو ان احد الادباء اقبل على قراءة قصص كرم ممعناً النظر في سطورها باحثاً بعين التروي الالفاظ باصلها ومعانيها بالحقيقة وبالمجاز لاستفاد وافاد في درس فقه اللغة . وانا على سبيل المرة والانموذج نستأذن القراء بالعرض على محك النقد جملة جاءت في الصفحة ١١٣ سطر ٢ من الضفاف الحمر .

« في الوثبة الشاحطة الى الفرار » عدت الى المنجد في اللغة لابحث معنى « الشاحطة » واتأكد من صدق وقوعها في موضعها .

واني في بحثي لمتطفل ثقيل الظل ولكن مع طلبي المعذرة من كرم « والعذر من شيم الكرام » اقول :

الشاحطة مشتقة من شحط والفعل الثلاثي شحط يأتي بمعاني شتى . فيقال شحط الاناء : ملأه وسقاه اكثر ماءه وسقرب الرجل : لدغته وسالطائر ذرق وسفلاناً سبقه وتباعد عنه .

وشحط المكان : بعد وشحط الجملَ ذبحه ومنزل [شاحط] بعيد .

اما كرم فيستعمل لفظة الشاحطة بصيغة الفاعل ومعنى المفعول بما يرادف « بعيدة » . كأن الفرار اخذ يقفز قفزاً . ولا بأس من التعبير المصوّر الحركة ولكن الم يكن اهون علينا ان نستغني عن القاموس ونتمتع مباشرة بقراءة القصة اذا جاء فيها « الوثبة القفازة في الفرار ! » . . .

ومن تفننه في الانشاء مخالفته ما هو مألوف في تركيب الجمل فيقول : « قد امتلأت بشطره الاوفر القبور » عوض ان يقول امتلأت القبور (اطياف ٢١)

— «حباها ما قطفت في جولة نهاره يدُه» عوض ان يقول حباها ما قطفت يده . . . (اطياف ١٩٠)

ويجدّد في استعمال امثلة المبالغة فيقول: الزمن المطواع او المعطاء (الضفاف ١٣)
والرمل اليبيس والرمل اللايم من الصحراء. (وامتصاه ٨١)

ويبتكر في التشابيه فيقول مضيفا الصفة الى الموصوف عن الشاب الزق :
انه «شرارة في يابس الحطب». (اطياف ٧١)

ويقول فيه :« ويرشق الشاة النائهة بحجر لا تطلعه سوى بين عامر الشباب». (اطياف ١٢٨)

وما اكثر ما يأتي المؤلف بتعابير مبتكرة جديدة لذيذة فيصف الابنة وقد تأبطت ذراع ابيها «تسنده في مشيته وتدهمها الريح معاً فيتمايل بعضهما على بعض كغصنين تجاورا في شجرة توج». (اطياف ص ٢٤٦)

ويقول عن الكاهن المعزي الابنة المفجوعة المتلاشية في العبرات«فامضه ان يخنق الطيق الزهرة العطرة». (اطياف ص ٢٢)

«ولاح القمر فوق تلة كنقطة فوق حرف». (ص ٥٤)

ويحسن التصوير فيقول :« وهذه الخالة تستقر بالمنزل كالخزانة المهملة». (اطياف ١٠٠)

ومن مبتكراته قوله في وصف صوت الشيخ «صوت خادش كصرير المنشار».
ويقول عن المرتعب في امره :« وجرض بريقه كأن في مبلعه الحطب». (الضفاف ١٠٠)

ويقول :

«حب البلوط لا يفتأ يجرص على غاياته من اشجار لبنان البواسق « الصلاب ... وهو شبه كالاصيد « انصاب بضع شعرات في مفرقه « لا تحجب صلعته « ولكنها دليله على عهد الفترة المراهقة». (اطياف ٧٨)

وهناك الاقوال المأثورة الجديرة بان تسير مثلاً :

«وعضة من افعة تعادل عمرًا طويلاً ماطخاً بالسفال». (اطياف ٥٨)

وقول البدوي :

«لم تمت المروءة في الصحراء». (اطياف ١٣٥)

وقول ابنة ثابت التهامي لمصعب البخيل :

«المال لا يخلق الناس». (ام البنين ص ١١٥)

وقال المؤلف : « ان لديه ما لا يقل عن مئة قصة جاهزة للطبع » .

واننا نتمنى له طولة العمر بالصحة والعافية ليقوم ما ابتدأ به . واشرنا الى ما رأينا خيراً في لفت نظره اليه عسى ان يحل نقدنا منه محل كلام الصديق المناصر للادب وذويه .

*

وما انتهينا من كتابة هذا المقال الا وفوجئنا بنعي كرم ملحم كرم :

انتقل الى رحمة الله تعالى متسماً واجبائه الدينية مأسوفاً عليه كثيراً يوم الاربعاء ٣٠ ايلول في بيته في بيروت شارع عبد الوهاب الانكليزي وينقل جثمانه الى مسقط رأسه مدينة دير القمر .

وكنا منذ بضعة ايام قد تعرفنا الى ابنته سوسن في المكتبة الشرقية . وحدثناها في المقال الذي نحن في صدده عن ابيها وتعاهدنا على ان تقدمه اليه فيقول فيه رأيه قبل نشره . . . وحالت المنية دون الامنية . وبفقدان كرم ملحم كرم فقد لبنان والادب العربي علماً من اعلامه العظام .

واذ نترحم على الراحل الكريم نتمنى لانجاله السير في الطريق التي فتحها امامهم والدهم المحبوب فيكملوا اعماله وعلى هذا الرجاء نشرنا ما رأينا خيراً في لفت النظر اليه في النقد .

اليك غلطات مطبعية رأينا افادة في ذكرها فتصلح في طبعة جديدة :

اطياف	٤ ، ٦٢	جواد = جوار
	١٥ ، ٥٢	اجيراب = اخيران
الضفاف	١٣ ، ١٣٢	تضع = تضع
	٧ ، ١٤٠	اضوا = امتوا
والمنتصباه	١٥ ، ٥٢	يذيبونها = يذيبونها
	١٧ ، ٩٧	يكيدرون = يكيدون
	٢ ، ١٧٠	ذورتها = ذروتها